المحاضرة رقم (03)

في نشأة النقد الأدبي الحديث

-الظروف والمؤثرات-

مفتتح

عرف النقد العربي انطلاقته الحقيقية في العصر الحديث لأسباب منها ما تعلق بالنهضة الأدبية التي شملت بالضرورة النقد الأدبي باعتباره يتخذ من الأدب موضوعا له، ومنها ما تعلق باتصاله بالنقد الأجنبي وتأثره بنظرياته ومناهجه، مما أفضى إلى بلورة وعي نقدي جديد نظرا لاختلافه عن القديم فهما وتنظيرا وممارسة، ثم بمواكبته الفاعلة لحركة تنامي الأدب الحثيثة، فأسهم في تطورها بقدر ما طور منظوراته وآلياته، وهو الذي سنتابعه في المحاضرة الحالية.

1- النهضة الأدبية

أدت جملة من العوامل إلى نشوء نهضة للأدب العربي في العصر الحديث، تبعتها أخرى في النقد الأدبي باعتبار أن أحدهما عاكسا للآخر بالضرورة، فتطور الأدب يتبعه تطور في النقد والعكس غير وارد، ذلك أن الأدب هو مادة للنقد، ومنه فكلما تطورت مادة النقد، تطور النقد بدوره، بما يضيفه عليها من كشوفات جمالية، توجه فعالية الإبداع، وتحكم أدواتها الفنية والتعبيرية، ولعل أبرزها:

العناية بحركة التعليم والتعلم، وذلك بإعادة الاعتبار للمدارس التقليدية كجامع الأزهر والأموي والزيتونة والقرويين[1]، في مقابل إنشاء مدارس حديثة لتكوين إطارات وكفاءات ستلقى عليهم مهمة بناء البلاد العربية، والنهوض بمستقبلها[2].

1)- الأمير شكيب أرسلان، ***النهضة العربية في العصر الحاضر***، الدار التقدمية، بيروت- لبنان، ط1، 2008م، ص48.
2)- محمد علي داود، ***دراسات في الشعر العربي الحديث***، مكتبة الكرنك، دمنهور- مصر، ط1، 1413هـ- 1992م، ص12.

لأجل ذلك كان لا بد من الارتقاء بحركة التعليم فاستقدم الأساتذة الأوروبيون، ثم تبعتها البعثات العلمية التي خصّ بها الطلبة المتفوقون للاستزادة من كافة أنواع العلوم المتنوعة[3].

فنشطت بذلك حركة الترجمة لتقريب المفاهيم بين الأساتذة الأوروبيين والطلبة العرب أولا، ثم لنقل مجموع المعارف التي تعرف عليها طلبة البعثات العلمية في أوروبا إلى البلاد العربية ثانيا، سرعان ما تلتها ترجمات أدبية للمذاهب والتيارات والأعمال الأدبية العالمية الشهيرة، فتشكلت بوادر نهضة أدبية إلى جانب سابقتها النهضة العلمية[4].

كما نشطت في المقابل حركة الطباعة التي بدأت علمية عُنيت بطباعة الكتب العلمية والمدرسية، ثم لم تلبث أن تبعتها حركة طباعة أدبية أسهمت في تحقيق وإخراج أمهات الكتب التراثية، ثم الأعمال الأدبية العالمية المترجمة[5].

فيما أدى ظهور الطباعة إلى انتشار حركة الصحافة التي اضطلعت بدور توجيهي إذ عملت نشر العلم والأدب في الوسط العربي بما أثارته من موضوعات ترتبط بهما، وإصلاحي بما نشرته من أفكار وموضوعات عن القومية والتقدمية والنهضة العلمية والأدبية في آن معا، بحيث أسهمت بطريقتها، بالإضافة إلى المجلات العلمية التي لحقتها بعد زمن يسير، في تغيير حساسية الشعوب العربية، واتجهت بها نحو غايات التجديد والإبداع والابتكار[6].

علاوة على ظهور الجماعات الأدبية التي كان هدفها تبادل الفكر والحوار بين الأدباء في كافة مسائل الأدب ومدارسه واتجاهاته مع نشر الإبداع والدراسات الأدبية المختلفة[7]، والمجامع اللغوية بدمشق والعراق والقاهرة التي أنشأت عقب حركة الترجمة رغبة في تطويع اللغة العربية لنقل آثار الحضارة الغربية، فأثريت اللغة العربية بما

3)- أحمد هيكل، ***تطور الأدب الحديث في مصر من أوائل القرن التاسع عشر إلى قيام الحرب العالمية الكبرى الثانية***، دار المعارف، القاهرة- مصر، ط6، 1994م، ص27.

4)- حسين علي محمد، ***الأدب العربي الحديث: الرؤية والتشكيل***، مكتبة الرشد ناشرون، الرياض- المملكة العربية السعودية، ط6، 1437هـ- 2006م، ص17- 18.

5)- عمر الدسوقي، ***في الأدب العربي الحديث***، دار الفكر، القاهرة- مصر، ط8، 1973م، 1/ 51- 54.

6)- شوقي ضيف، ***الأدب العربي المعاصر في مصر***، دار المعارف، القاهرة- مصر، ط10، 1992م، ص34- 37.

7)- حسين علي محمد، ***الأدب العربي***، ص17- 18.

أصدرته تلك المجامع من المصطلحات العلمية والأدبية، والتحقيقات اللغوية، والمعاجم الحديثة[8].

كما أنه لا يمكن إغفال جهود المستشرقين في النهضة العربية، بالرغم من أن حركتهم قد خدمت في البدء الأهداف الاستعمارية إلا أنها اتجهت فيما بعد إلى الناحية العلمية الخالصة التي وثقت أواصر الاتصال الفكري بين الشرق والغرب، فخدموا واقع النهضة العلمية والأدبية بما قدموه من بحوث في تاريخ نشأة اللغة العربية وتطورها، ونشر نفائس المخطوطات بطبعات متقنة، ونشرها والتعريف بها في الأوساط العربية والغربية، وتأليف دائرة المعارف الإسلامية، وتطوير الدراسات الأدبية[9].

2- المؤثرات الأجنبية

تأثر النقد العربي الحديث بالنقد اليوناني، خاصة بأفلاطون الذي ادعى أن الشعر يحاكي الواقع كالمرآة؛ فهو مضر وغير نافع بما ينشره من أخلاق سيئة في أوساط المجتمع السليم، ثم بتلميذه أرسطو الذي عارض فكرته ورأى بأن الشعر محاكاة تفضل الواقع، وذلك من طريق الشفقة والخوف الذي يبعثه في الجمهور فيحدث التطهير؛ فالشعر عنده نافع للمجتمع بما أنه مفيد في تطهير الأخلاق وتهذيبها، وممتع بما نجده من راحة بهذا التطهير[10].

فيما تأثر بالنقد الكلاسيكي الذي تأثر بدوره بمفهوم المحاكاة عند أرسطو، وتناولوا الشعر من حيث علاقته بالواقع، أي كونه محاكاة أو إبداعا واختراعا، كما تناولوا علاقته بالمتلقي، فاستبدل درايدن التعرف في المحاكاة بالتطهير معترفا أن الدرس الأخلاقي أو الموعظة السلوكية التي هي غاية المأساة لا تتحقق إلا من خلال إمتاع المشاهد بما يرى ويحس ويسمع[11]، والتعبير وهو البنية المتخيلة التي يخترها الشاعر ليقدم من خلالها حقائق العمل الأدبي، وهذه البنية تشتمل على الحبكة والأسلوب، على أن مفهومه للحبكة لا يبتعد كثيرا عن مفهوم المحاكاة عند أرسطو طالما أنها تُعنى بتنظيم الحكاية أو

8)- الأمير شكيب أرسلان، ***النهضة العربية في العصر الحاضر***، ص46.
9)- حسين علي محمد، ***الأدب العربي***، ص28.
10)- رشيد يحياوي، ***مقدمة في نظرية الأنواع الأدبية***، دار أفريقيا الشرق، الدار البيضاء- المغرب، ط2، 1994م، ص43.
11)- ديفيد ديتشس، ***مناهج النقد الأدبي بين النظري والتطبيق***، ترجمة: إحسان عباس ومحمد يوسف نجم، دار صادر، بيروت- لبنان، ط1، 1967م، ص120.

الأسطورة تنظيما يجعلها مشاكلة للواقع أو تجعله ممكن الحدوث[12]، والعاطفة التي تحقق النشوة عند جنسون وهو بذلك لا يخالف أرسطو في أن المأساة محاكاة لكنها تحاكي الحقائق الجزئية العارضة والمتغيرة بطريقة تجعل المسرحية مرآة صقيلة تنعكس فيها الحياة بالمعنى الواسع للكلمة[13].

بينما اتجه النقد الرومانسي بالنظرية النقدية في اتجاه آخر جديد يعرف بنقد التعبير أو نظرية التعبير، حيث تصورها وردزورث في الشعر بوصفه تدفقا تلقائيا للعواطف الجياشة التي تنتج عن الألفاظ البسيطة المألوفة والإيقاعات الموسيقية العذبة التي تشبه بموسيقاها أغاني الفلاحين[14]، الذي ينتج متعة وهي الشرط الأساس للتعلم، كما أنها الإفادة التي سماها أرسطو تطهيرا، فيما اعتبر كولردج الشعر العظيم وليد ملكة خاصة هي الخيال الثانوي أو الخلاق وليس الخيال الأولي، فهو الذي يعدّ الشاعر الموهوب التصورات التي تنصهر وتتخلق في القصيدة من جديد على نحو تختلف فيه عن أصولها اختلافا شديدا[15]، مما عجّل بظهور نقد جديد يعنى بالربط بين الشكل الجديد والمحتوى الشخصي للنصوص، فظهر سانت بيف بنقده الشخصي أو السيري الذي يبحث في حياة الأديب وأخباره ليكوّن فكرة وافية عن شخصيته ونفسيته ومزاجه[16]، بينما رأى ماثيو آرنولد أن الشعر نقد للحياة محددا تبعا لذلك معيار الحكم على القصيدة الجيدة في الطاقة الدرامية، والانفعال القوي، والأسلوب الرفيع، والعاطفة الجياشة، والإحساس العفوي، والقدرة على الإلهام الإنشادي[17].

هذا وقد استفاد النقد الأدبي الحديث من طروحات العلوم والمعارف الإنسانية كالفلسفة التي وجهت عنايتها بالشكل الجميل والسامي عند كانط وشيلر، ورصد العلاقة بين تجليات الفكر المطلق والشكل الفني عند هيجل، والجميل والسامي دليل على قوة

12)- ***المرجع السابق***، ص126.
13)- ***م.ن***، ص128، ص140.
14)- زكي نجيب محمود، ***قشور ولباب***، دار الشروق، القاهرة- مصر،ط2، 1408هـ- 1988م، ص18.
15)- إسحاق فائق متى، ***مذاهب النقد ونظرياته في إنجلترا قديما وحديثا***، مكتبة الإنجلو مصرية، القاهرة- مصر، (د.ط)، (د.ت)، 2/ 23.
16)- محمد مندور، ***في الأدب والنقد***، دار نهضة مصر ، القاهرة- مصر، ط1، 1970م، ص76.
17)- ماثيو آرنولد، ***مقالات في النقد***، ترجمة وتقديم: علي جمال الدين عزت، الدار المصرية للتأليف والترجمة، (د.ط)، 1966م، ص8.

الإرادة عند شوبنهاور إذ هما يتحققان إلا في الأعمال الفنية باعتبار أنهما من ابتكار الإنسان وإبداعه[18]، والتاريخ الذي ركز على ربط العلاقة بين الفنون والزمن والعوامل التاريخية كما فعل هيبوليت تين في أبحاثه النقدية المرتكزة على بحث الأدب من منطلقات ثلاثة هي الجنس والبيئة والزمن[19]، وعلم النفس الذي درس العلاقة بين الأدب ونفسية صاحبه أو من خلال الرموز التي يقدمها أدبه للهروب من التعبير عن حاجاته الأساسية كما فعل فرويد في دراسته للأحلام بحثا عن الرغبات المكبوتة[20]، ويونغ بحثا عن الأشكال العليا بوصفها مزيجا بين وعي الفرد المبدع ولاوعي الجماعة التي تختزن في ثقافتها رموزا حيوية تثير الإحساس بها وتعبر عن وعي المجتمع بذاته[21]، وعلم الاجتماع الذي تجاوز التركيز على المبدع إلى التركيز على القارئ أو المجتمع كما فعل مدام دي ستايل وبونالد في أبحاثهما النقدية التي تصورت أن الأدب تعبير عن المجتمع[22]، ثم غدا انعكاسا له عند الماركسية لا يكتفي بتصويره نظرا لارتباطه الوثيق الجدلية التاريخية، بل يسعى إلى تغييره من خلال تصويره للقوى الكامنة فيه المهيأة للنجاح في تطويره[23].

18)- إ. نوكس، ***النظريات الجمالية (كانط- هيغل- شوبنهاور)***، عربه وقدم له: محمد شفيق شيّا، منشورات يحسون الثقافية، بيروت- لبنان، ط1، 1405هـ- 1985م ، ص39، 103، 153.

19)- مؤلف جماعي، ***مدخل إلى مناهج النقد الأدبي***، ترجمة: رضوان ظاظا، سلسلة عالم المعرف، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ط1، ذو الحجة 1417هـ- مايو/ أيار 1997م. يُنظر: الفصل الرابع، بيير باربيريس، ***النقد الاجتماعي***، ص180- 182.

20)- ميجان الرويلي وسعد البازعي، ***دليل الناقد الأدبي (إضاءة لأكثر من سبعين تيارا ومصطلحا نقديا معاصرا)***، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء- بيروت، ط2، 2000م،ص225- 226.

21)- محمد ياسين، ***الأسطورة والأدب***، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت- لبنان، ط1، 1996م، ص 32.

22)- بيير باربيريس، ***النقد الاجتماعي***، ص170.

23)- فتحي أبو العينين، ***«التفسير الاجتماعي للأدب»***، مجلة عالم الفكر، الكويت، ع3-4، 1يناير 1995م، ص165- 201.